نماذج من العطاء الإسلامي

للحضارة الإنسانية

في المجال الطبي

obeikandl.com

obeikandl.com

من أبرز ملامح العطاء الإسلامي للحضارة الإنسانية في المجال الطبي ما قدمه العلماء المسلمون في المجالات الطبية كافة ، وسنعرض هنا لعدة جوانب كأمثلة فقط للتدليل على عمق ذلك العطاء وتنوعه ، أما استقصاء جميع جوانبه فهذا ما لا يتسع له المجال هنا ويحتاج لمؤلف خاص :

أولا : وضع قواعد علم الجراحة :

ساهم الأطباء العرب القدامى في وضع قواعد فن الجراحة،وكانت لهم أياد بيضاء ومآثر يذكرها تاريخ هذا العلم.

كما كانت لهم اسهاماتهم الواضحة في جعل الجراحة فنا وعلماً، ذا أصول وقواعد.

ويرى الدكتور محمد فؤاد الذاكري– [مجلة آفاق الثقافة والتراث ع(١١) رجب ١٤١٦هـ ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٥م] أن الجراحة العربية خاصة، والجراحة في القرون الوسطى عامة، بلغت ذروتها عن طريق طبيب عربي نابغة هو أبو القاسم الزهراوي (٩٣٦ – ١٠١٣م) في كتابه الشهير "التصريف لمن عجز عن التأليف"[١] الذي يعد بحق دائرة معارف طبية واسعة ، مقسمة إلى ثلاثين فصلا أما أهم فصول الكتاب فهو الفصل الأخير الذي خصصه للجراحة.

ومن الطبيعي أن تنال الجراحة الفكية الوجهية نصيباً كبيراً من اهتمامات الزهراوي، وأن يخصص لها الصفحات الطوال لكي يعرض فيها الحالات الجراحية الفلكية التي تصدى لها بالمعالجة مع بيان التشخيص التفريقي لكل حالة، وتوصياته العامة التي يعرضها ، وما يراه مناسباً لحصول البرء والشفاء العاجل.

في البداية ينبه الزهراوي كل طبيب يريد أن يتخصص بفرع الجراحة إلى ضرورة الإطلاع وقراءة الكثير من الكتب الطبية ، ثم التدريب الكافي حتى يكتسب

الخبرة الضرورية التي تؤهله للقيام بالمداخلات الجراحية، كما يوصيه بأن يتعرف بشكل جيد على الأدوات الجراحية اللازمة، وأن لا يمنعه ذلك – إذا دعت الحالة إلى استنباط أدوات جراحية جديدة، أو إدخال تحسينات على تلك المستخدمة ، إن كانت لا تفي بالغرض ومن نافلة القول أن يتقن الطبيب الجراح علم التشريح بكل دقائقه، وهذا ما يطالب به الزهراوي، ويعبر عنه بقوله:

لأن صناعة الطب طويلة، وينبغي لصاحبها أن يرتاض من قبل ذلك في علم التشريح .. حتى يقف على منافع الأعضاء وهيآتها ومزاجاتها واتصالها وانفصالها، ومعرفة العظام والأعصاب والعضلات وعددها ومخارجها والعروق النوابض والسواكن ومواضع مخارجها، ولذلك قال أبقراط: إن الأطباء بالاسم كثير وبالفعل قليل"[٢].

ويقدم بهذا الصدد عدداً من التوصيات للأطباء الشباب المزاولين للجراحة، الذين كثيراً ما يدفعهم حماس الشباب إلى استخدام المبضع بدون ترو ولا تحفظ، فهو يحذرهم من الغرر في ذلك خشية وقوعهم في مواطن الزلل، وبذلك يكون الزهراوي من القلائل الذين جعلوا الجراحة علما مستقلاً ، يرتكز على أساس من علم التشريح [٣] " من لم يكن عالما بما ذكرنا من التشريح ، لم يخلأن يقع في أخطاء يقتل الناس بها، كما قد شاهدت كثيراً ممن تصور في هذا العلم وادعاه بغير علم ولا دراية" [٤] ويتبين من الحالات المرضية التي يصفها الزهراوي، ومن الملاحظات الشخصية والنوادر التي تتخلل المقالة أنه كان طبيباً مزاولاً وجراحاً عملياً. فهو يذكر أربع حالات جراحية شهدها بنفسه وكلها انتهت نهايات مؤسفة نتيجة لجهل الأطباء الذين قاموا بمداخلاتهم الجراحية من غير مران كاف في التشريح، ومن غير معرفة جيدة باستخدام الأدوات الجراحية"[٥].

وفيما يلي سنستعرض الحالات الجراحية الفكية الوجهية التي ذكرها الزهراوي وعالجها وهي:

أولا: عملية قطع لجام اللسان القصير غير الطبيعي:

FRENUM LINGUAE1

أو التي تسمى باللسان المربوط أو اللسان الملتصق [٦] ويسميها الزهراوي بقوله: قطع الرباط الذي يعرض تحت اللسان فيمنع الكلام"[٧].

أما طريقة العمل فيصفها بقوله:" العمل فيه أن تفتح فم العليل، وترفع لسانه ثم تقطع بعد ذلك الرباط العصبي بالعرض، حتى ينطلق اللسان عن إمساكه"[٨] بعد ذلك يضع فتيلة من الشاب أو الكتان تحت اللسان، مكان القطع، بعد أن يغمسها بمواد مطهرة ومرقئة عدة أيام كما يقول:" ثم يتمضمض في أثر القطع بماء الورد أو بالخل والماء البارد، ثم ضع تحت اللسان فتيلة من كتاب يمسكها العليل في كل ليلة لئلا يلتحم ثانية"[٩].

ويحذر من المبالغة في قطع النسج المسببة لربط اللسان لئلا يسبب نزفاً. وفي حالة حدوثه فهو يعالجه بالأدوية المرقئة مثل الزاج المسحوق [*pounded vitriol*][١٠] أو العفص [*Tannin*] [١١] أو نحوهامن المواد القابضة للأوعية الدموية.

وفي حال زيادة النزف. وعدم نجاعة الأدوية يلجأ للكي [*cauterization*] النار أو الحرارة موضع لنزف بمكواة عدسية الشكل، تحمى على النار حتى تصير بلون أحمر مبيض، أو أحمر قاتم ثم توضع على المكان النازف، والمكواة قضيب حديدي قد يكون مجهزاً بقبضة خشبية، ومنتهية أشكال مختلفة.

وتختلف تأثيرات الكي، بالنسبة لنوع المكواة ودرجة حرارتها فالمكواة التي تكون بلون أحمر مبيض يكون فعلها سريعاً وعميقاً ، فلا تلصق بالنسج التي تكويها

بل تقطعها بسرعة لا تقطع النزف، والألم الذي تسببه أخف من ألم المكواة وهي في درجة الاحمرار القاتم . وهذه الأخيرة فعلها أقل عمقا وتلصق بالنسج التي تكويها وتقطع النزف ويكون الألم بها أشد [١٢] .

وتختلف المكاوي بحسب شكل الرأس العامل بها، وفي أحجامها بحسب مكان الكي والغاية منه.

وقد عرض الزهراوي أشكال المكاوي وسماها بحسب أشكال رؤوسها، منها: المكواة العدسية والزيتونية، والهلالية، والمجوفة والدائرية، وغنى عن القول بأن الكي الحراري.

بقي شائع الاستعمال ومتعدد الأغراض إلى حين ظهور المكواة الكهربائية وهذه أكثر تحكما وأسهل استعمالا ولاسيما في الأماكن العميقة.

كما استخدم الزهراوي الكي لمعالجة النواسير Fistula الناجمة عن الآفات الذروية للأسنان العفنة على سبيل المثال. وكان يوصى بكي النواسير بمكاوي ذات رؤوس تتناسب سعتها مع سعة الناسور، إذا لم تجد المعالجة بالأدوية والمراهم الموضعية، أ يلجأ إلى تعرية العظم وتجريف قسمه المؤوف الذي سبب بقاء الناسور، ويعبر عن ذلك بقوله: "ولابد من الكشف على المكان ، وينزع العظم الفاسد"[١٣].

وفي ذلك إشارة إلى الاستئصال الجراحي للآفات الذروية السنية.

ثانيا: استئصال الأكياس المخاطبة *Mucous cysts*

ويعرفها الزهراوي بأنها : العقد التي تعرض في الشفتين"[١٤]

ويشرح طريقة استئصالها جراحياً على الشكل التالي : " قد يعرض لكثير من الناس في داخل شفاهم أورام صغار صلبة يشبه بعضها حب الكرسنة "[١٥] وبعضها

أصغر أو أكبر، فينبغي أن تقلب الشفة، وتشق على كل عقدة وتعلقها بالصنارة وتقطعها من كل جهة ثم تحشو الموضع بعد القطع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم، ثم يتمضمض من كل جهة، ثم تحشو الموضع بعد القطع بزاج مسحوق حتى ينقطع الدم، ثم يتمضمض بالخل والملح، وتعالج المواضع بما فيه قبض إلى أن تبرأ الجراحات [١٦] والأكياس المخاطبة تعد من أكياس الاحتباس الفموية [*Oral Retention cysts*] وهي من آفات الفم الشائعة حيث تشاهد في السطح الخلفي للشفة وفي جوف الفم، ويبلغ قطر هذه الكيسات من ٢ ملم إلى ٢ سم،وتعالج الاستئصال الجراحي [١٧].

ثالثا: استئصال الكيس الضفدعي (الشرغوفي): *Ranula*

يصفه الزهراوي بقوله:"قد يحدث تحت اللسان ورم يشبه الضفدع الصغيريمنع اللسان عن فعله الطبيعي، وربما عظم حتى يملأ الفم. والعمل فيه أن تفتح فم العليل بإزاء الشمس وتنظر إلى الورم، فإن رأيته كمد اللون أو أسود صلباً لا يجد له العليل حسا فلا تتعرض له فإنه سرطان، وإن كان مائلا إلى البياض فيه رطوبة فألق فيه الصنارة ورشقة بمبضع لطيف وخلصه من كل جهة، فإن غلبك الدم في حين عملك فضع عليه راجاً مسحوقاً حتى ينقطع الدم، ثم عد إلى عملك حتى تخرجه بكامله، ثم يتمضمض بالخل، والملح، ثم تعالجه بسائر العلاج الموافق لذلك حتى يبرأ" [١٨].

يشاهد الكيس الضفدعي في قاع الفم بين جذر اللسان والفك الأسفل وفي منتصف المسافة بينهما قريباً، ويظهر بشلك انتباج مزروق شفاف، ويحتوى على اللعاب مع زيادة في التروية الدموية لجدار الكيس، وإذا تمزق الكيس إن السائل اللعابي ينكسب منه، إلا أنه يميل للنكس ثانية، وعلاجه هو الاستئصال الجراحي مع

وضع مفجر[١٩]. ويلاحظ أن المؤلف نصح بتمييز الكيس الضفداعي عن الورم السرطاني الذي يكون صلباً، ففي هذه الحالة يجب عدم التعرض للورم.

رابعا : كسور الفك السفلي :

يتحدث المؤلف عن الكسور المفردة (*Unilateral Rracture*) التي تقع في جسم الفك السفلي، والتي كانت على الأغلب شائعة الحدوث في ذلك الوقت. ويفرق بين الكسور البسيطة المغلقة (*Simple fracture*) والكسور المركبة (*compound fracture*) التي يتصل فيها العظم المكسور مع جوف الفم أ السطح الخارجي للوجه[٢٠].

ففي الحالة الأولى الكسور البسيطة): يعطى المؤلف التشخيص الصحيح لحدوث الكسر من خلال ملاحظة التشوه الواضح، وانحراف القوس السنية في الفك السفلي، ويعين موضع الكسر من خلال الجس باليد، ثم يقوم برد طرفي الكسر وإعادتهما إلى الوضعية الصحيحة بطريقة الضغط الإصبعي يقول: " يدخل الإصبع السبابة من اليد في فم العليل، وترفع به حدية الكسر من داخل برفق إلى خارج ويدك الأخرى من خارج العظم تحكم بخت تسويته"[٢١].

وبعد تأمين الرد الصحيح والإطباق التام، يثبت طرفي الكسر، بوضع جبيرة سلكية من الذهب أو الفضة على الأسنان المتبقية والموجودة . ثم يضع بعد ذلك نوعا من المراهم يستعمله كضماد يسميه (القيروطي) [٢٢] على الناحية المصابة من الخارج، ويثبت بعد ذلك المقلاع الذقني *Mental bandages* لتثبيت الكسر وعلاجه.

ويعطى تعليماته الحازمة للمريض بالراحة التامة وعدم الحركة، مع الحمية الفموية السائلة ويصف ذلك بقوله: "وتأمر العليل بالتودع والسكون، وتجعل غذاءه

الأحساء اللينة"[٢٣]. ويطالب المؤلف بنزع المقلاع الذقني بعد فترة ثلاثة أسابيع وهي المدة المطلوبة لالتئام الكسر على الأغلب.

أما في حال ظهور مضاعفات تلك الفترة ، وهي على الاغلب حدوث ورم وانتباج في منطقة الكسر مترافق مع ألم شديد، فهو يتصدى لهذا العرض على الشكل التالي: ينزع الطبيب (المقلاع الذقني) في الحال، ويمسح منطقة الكسر من الخارج بالماء الفاتر، ويضع كمادة أو رفادة من الشاش المغموس في الخل أو الزيت أو دهن الورد لمدة ليلة أو أكثر، وذلك لتسكين الألم وإزالة الوذمة الالتهابية الناجمة عن حدوث الكسر حتى إذا زالتهذه الأعراض ، فهو يعيد المقلاع الذقني. وهكذا حتى يتم الشفاء .ويطالب المؤلف بمراقبة حالة المريض العامة يومياً فإذا لاحظ حدوث تحرك المقلاع الذقني) عن موضعه مما قد ينجم عنه تغير طرفي الكسر، فهو يبادر بحل المقلاع وإعادة الرد والتثبيت.

أما في الحالة الثانية: وهي حدوث الكسر المترافق مع جرح ظاهر فإن المؤلف بعد أن يقوم برد طرفي الكسر وتثبيتهما فهو يبادر إلى تجميع تفرق الاتصال الحاصل في الأنسجة اللينة، وخياطة فتحة الجرح من الخارج.

والزهراوي شرح عدة أنواع من طرق الخياطة للأنسجة اللينة بشكل مفصل واستخدام عدة أنواع من الإبر الجراحية مختلفة الأحجام، كما استخدام الخيطان الحريرية (الإبريسم) وكذلك الخيطان الجراحية المصنعة من الأمعاء الدقيقة للحيوانات (المصران) *Cat gut*] والتي أصبحت شائعة اليوم. ولعله الرائد في هذا السياق.

وتعرض المؤلف لطريقة إجراء خياطة جروح الأذن أو الشفة التي يحدث فيها تفرق اتصال شفتي الجرح، ثم التئام كل حافة على حدة، والطريقة التي ينصح بها

المؤلف لإجراء مثل هذه المعالجة هي مثلما يتم إجراؤه اليوم تماما حيث يقول:"وإن كان تفرق الاتصال قد افترق شفتاه وصار كل شق صحيحاً، فينبغي أن تسلخ كل شق عن جلده الظاهر، حتى يدمى ثم تجمع الشفتين بالخياطة وتشدها"(٢٤).

خامساً : انخلاع المفصل الفكي الصدغي (*Dislocation*) وخروجه عن موضعه:

ويعطى المؤلف العلامات التشخيصية التالية لهذا العرض حسب قوله:"يسيل لعاب العليل ولا يستطيع إمساكه، ولا يطيق أن يطبق فكه ويتلجلج لسانه بالكلام"(٢٥).

ووصف المؤلف للطريقة اليدوية في رد خلع المفصل الفكي الصدغي، لا يختلف أبداً عن الطريقة المتبعة اليوم، ويرى ضرورة الاستعجال في رد خلع المفصل وعدم التأخير أبداً. وتثبيت الفك السفلي مع العلوي برباط من الشاش لمدة يومين . ويقدم النصائح التالية للمريض بقوله:" لا يتكلف مضغ شئ بل يجعله غذاءه حسواً ليناً، وليستعمل ذلك برفق، ولا يتحامل على فتح فمه عند الأكل والشرب والتثاؤب ، حتى ينعقد الفك ويبرأ"(٢٦).

سادسا: الخراجات السنية:

يسرد المؤلف الأعراض التي ترافقها بقوله:

"إن الخراج يكون معه حرارة وحمى وأوجاع مخوفة، حتى يهدأ غليان الفضل ويكمل العفن، فحينئذ تسكن لحم والحدة"(٢٧).

ويحدد زمن معالجتها بالتفجير الجراحي من خلال ظهور العلامات التشخيصية التالية: "عند سكون وجع الورم وذهاب الحمى ونقصان الحمرة والضربان"(٢٨) وتخدد رأس الورم وسائر العلامات"(٢٩) ثم يصف أنواع الشق الجراحي لتفجير الخراج بحسب أشكالها، ومنها الشق المستدير، والشق الهلالي وهو عبارة عن فتيلة من الكتان"(٣٠).

ويحدد مكان إجراء الشق الجراحي بأنه: ينبغي أن يوقع البط [٣١] في أسفل موضع من الورم إن أمكن ذلك ليكون أسهل لسيلان المدة [٣٢] إلى أسفل أو في أرق موضع من الورم وأشد نتوءاً [٣٣].

ومن ناحية أخرى يقدم الزهراوي نصيحة ذهبية للجراحين بأن يتصفوا بالحذر الشديد والانتباه، وعدم الوقوع في الشبهة، وذلك عند الكلام عن الثاليل التي تنمو في طرف الأنف (*nasal warts*) التي يصفها بقوله:" كثيراً منا ينبت في طرف الأنف تؤلول" فيعظم ويتزايد مع الأيام حتى يقبح منظره ولذلك ينبغي أن تقطعه في أول ظهوره وتستأصله جميع÷ثم تحمل على الموضع إما الكي، وإما الدواء المحرق الذي يقوم مقام الكي"[٣٤].

ولكنه وبلهجة تحذيرية ينبه إلى ظهور بعض العلامات التشخيصية التفريقية منذرة بتحول الثؤول إلى ورم سرطاني ويشرح ذلك بقوله: "فإن فات قطعه حتى يعظم، فانظر فإن كان متحجراً صلبا كمد اللون، قليل الحس فلا تعرض له بالحديد[٣٥] فإنه ورم سرطاني وكثيراً ما رأيت من قطع هذا الورم فعادت منه بلية عظيمة على صاحبه"[٣٦].

فالمؤلف لا تنقصه الروح العلمية والموضوعية، ولا الشجاعة الأدبية لتقرير أنواع العلاج ونسب النجاح بها، فهو يتحدث في موضع آخر عن الأورام السرطانية بقوله: "فإني ما استطعت أن أبرئ منه أحداً، ولا رأيت قبلي غيري وصل إلى ذلك"[٣٧].

نلاحظ بأن الزهراوي يعالج علم الجراحة على أساس كبير من المعرفة وبشئ كثير من التفصيل ، ومقالته في الجراحة تعد أول دراسة معقولة للموضوع مشروحة بصورة الأدوات الجراحية التي كان يستخدمها، فقد رود كتابه الجراحي

بمائتي صورة توضيحية للأدوات التي تستخدم في الجراحة والشق على الأورام منها:

١- المدسات *[Explores]*

ذات الأحجام المختلفة، التي تصنع من الحديد والفولاذ، وهي أشبه ما تكون اليوم بإبرة البزل، ويستخدم المدس لاستقصاء محتوى الكيسات أو الأورام.

٢-المسابر [*Probes*]

وهي ذات أحجام مختلفة، وتستخدم لسبر النواسير والأورام، وتصنع من النحاس أو الرصاص إذ إن الأخيرة يمكنها أن تنعطف حين استخدامها لاستقصاء النواسير.

٣-الصنانير [*Hooks*]

وهي ذات حجوم مختلفة وأشكال عديدة، ومنها ما يكون مزوداً بخطاف أو اثنين وربما ثلاثة. وتستخدم لتعليق أورام حين العمل على استئصالها.

٤-المشارط [*Scalpels*]

أحجامها مختلفة، تستخدم لشق الأورام وتسليخها.

٥-المخادع [*Deceivers*]

وهي على شكل من أشكال المشارط، تصنع من النحاس، طرفها الواحد يشبه المعلقة، ويتألف من طبقتين توضع بينهما شفرة مخفية.

٦-المباضع الصغيرة التي تستر بين الأصابع.

وتستخدم أثناء شق الأورام، وتستر بين الأصابع، بحيث لا يمكن للمريض مشاهدتها وهي ذات أحجام مختلفة.

obeikandl.com

تدل بعض القرائن على أن الزهراوي هو الذي ابتكر معظم ما كان يستعمله من أدوات جراحية. ولئن كان بعضها معروفاً فهو قد أدخل عليه تحسينات وطوعه للاستعمال الطبي، وجرب فاعليته بنفسه في العمل، وقد شرح في كثير من الأحيان منفعة الأدوات الجراحية التي صور أشكالها، وبين المادة التي تستعمل في صنعها وطريقة استخدامها، واكتفى في بعض الأحيان بذكر اسم الأداة التي يتعين الاستعانة بها دون أية تفاصيل أخرى [٣٨].

فالزهراوي – كما يقول الدكتور الذاكري – يعد فخر الجراحة العربية، وعلى يديه وصل علم الجراحة إلى قمته في ذلك الوقت، وهو من أوائل الأطباء العرب الذين نبغوا في علم الجراحة، وأول من استعمل ربط الشرايين لمنع النزف، وشرح ذلك مفصلا في كتابه وفي أكثر من موضع، كما أنه نبه في كل موضع إلى أخطاء العمليات وإلى الاحتياطات الواجب اتخاذها، وقد وصف ذلك في كل عملية جراحية، وبذلك قال العارفون: إنه أكبر جراح عرفته الحضارة العربية، وأن ما كتبه الزهراوي عن الجراحة والآلات الجراحية يعد مساهمة عربية بارزة في هذا الجانب من الطب.

ثانيا : في مجال طب الأسنان :

يقول الدكتور/ محمد فؤاد الذاكري [مجلة آفاق الثقافة والتراث (الإماراتية) العدد الخامس – المحرم ١٤١٥ هـ يونيو/ حزيران ١٩٩٤ ص٧٦]

يعد نخر الأسنان DENTAL CARIE من أكثر الأمراض حدوثاً، وهو يصيب الإنسان في مختف مراحل العمر. وإصابة السن بالنخر تتميز بظاهرة رئيسية ، هي تخرب نسجه الصلبة المينائية أولاً والعاجية ثانيا: ويتشكل في موضع الإصابة تجويف يعرف بالحفرة (*CAVITY*).

وتهتم مداواة الأسنان بترميم ما يتخرب من الهيكل السني بفعل النخر وسواه من العوامل المخربة الأخرى، وذلك بمعالجة ما قد تحدثه تلك العوامل نفسها من إصابات متقدمة كالإلتهابات اللبية المختلفة والاختلاطات المحيطة بذري الأسنان.
كان ابن سينا (٣٧٠ – ٤٢٨ هـ/ ٩٨٠ – ١٠٣٧م) واضحا دقيقاً في تحديده الغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال:" الغرض من علاج التآكل ، منع الزيادة على ما تأكل وذلك بتنقية الجوهر الفاسد منه وتحليل المادة المؤدية إلى ذلك". ونلاحظ أن المبدأ الأساسي لمداواة الأسنان هو المحافظة عليها (*CONSERVATIVE DENTISTRY*) وذلك بإعداد الحفرة إعداداً فنيا ملائماً، بعد رفع الأجزاء النخرة منها، ثم يعمد إلى ملئها بالمادة الحاشية المناسبة لتعويض الضياع المادي الذي تعرضت له السن، مما يعيدها بالتالي إلى أداء وظيفتها الغريزية من جديد.

أما المواد الحاشية التي استخدمها الأطباء العرب القدامي فهي عديدة منها: المصطكي[٣٩] وتسمى أيضا العلك الرومي (*PISTACIA LENTICA*) وهي نوع من أنواع الصموغ البيضاء، الناعمة ، الطيبة الرائحة، ذات اللدونة، المائلة إلى المرارة. وشرح أبو الحسن الطبري الذي عاش في القرن الرابع الهجري طريقة استخدامها، في كتابه (المعالجات البقراطية) فقال: ويستعمل المصطكي ويعجن، ثم يعملون منه شكلا على استدارة الثقب فيجعلونه فيها، ويمرون على الفاضل من المصطكي حديدة محماة".

وقد عرف الأطباء العرب القدامى الحشوات المصبوبة [٤٠] ولكنهم استخدموا لصناعة عظام الحيوانات أو العاج عوضاً عن الخلائط المعدنية اللاصدئة ويشرح هذه الطريقة أبوالحسن الطبري فيقول:

"ومن الأطباء من ينحت من عظام الفيل فيهندمونه في الثقبة".

أما في الحالة التي ينفذ فيها النخر داخل طبقات السن ويؤدي إلى انكشاف اللب [٤١] والتهابه، وبالتالي حصول الألم الشديد الذي يتوافق مع هذه الحالة، وإذا ما جست الناحية بالمسبر نفذ داخل الكتلة العاجية المتلينة مثيراً الماً واضحاً يؤكد تشخيص الإصابة.

فقد أعطى الرازي (٢٥١ – ٣١٣هـ/ ٨٦٥ – ٩٢٥م) التشخيص التفريقي الصحيح لها إذ قال :" الوجع في السن ... إذا كان في العصبة [٤٢] أحس بالوجع غائراً وفيه شئ شبيه بالضرس واشتكى من الفك"، وفي حالة حدوث التموت اللبي وهو المرحلة القصوى من التهاب اللب حيث يصبح اللب كتلة سوداء مؤلفة من نسج متخربة، وينعكس ذلك على تاج السن فيصبح لونه رمادياً بصورة تدريجية،فإن ابن سينا يفرق بين هذا العرض وبين تغير لون تاج السن لأسباب أخرى، منها تركم الترسبات القلحية الكثيفة عليه فيقول إن ذلك:" قد يكون لتغير لون ما يركبها من الطلاوة فيحدث قلح وربما تحجر في أصول السن تحجراً يعسر قلعه، وقد يكون لمادة رديئة تنفذ في جوهر السن وتتغير فيها أو يفسد لونها إلى باذنجانية ونحوها من غير أن يكون عليها قلح".

وفي مجال مداواة الأسنان اللبية (*ENDODONTDENTISTRY*) استخدام الأطباء العرب القدامي مادة الزرنيخ لإماتة اللب وتهدئة آلام الأسنان، ويصف الرازي ذلك بقوله:" في الأسنان المتآكلة يذاب زرنيخ أحمر بزيت ويغلي ويقطر منه في أصل الضرس وأكاله". ونلاحظ أن هذه المادة ما تزال تستخدم حتى يومنا هذا في المعالجات اللبية وبشكل واسع.

كما لجأ الرازي إلى طريقة تحنيط اللب ثم وضع بعض المواد الكاوية بتماس مع النسيج اللبي مما يؤدي إلى إماتته وحفظه في حالة عميقة، ويتبع ذلك زوال الألم بطبيعة الحال.

ويصف الرازي ذلك التحنيط بقوله: "إذا اشتد الوجع فبخر فم العليل ينفع، فإن لم يسكن فاثقب وسط لسن بمثقب دقيق وقطر فيه الزيت المغلي مرات".

كما يؤكد ذلك ابن سينا بقوله:" كثيراً ما يحتاج إلى ثقب السن بمثقب دقيق لينفس عنه المادة المؤذية وتجد الأدوية نفوذاً إلى قعره".

وفي موضع آخر يشرح ابن سينا هذه الطريقة فيقول :" تؤخذ مسلة تحمى وتغمس في ذلك وتنفذ في تجويف أنبوب متهندم على السن الوجعة حتى تبلغ السن وتكويها، وقد جعل على ما حواليها شمع أو عجين أو شئ آخر يحول بين السن وما حواليها من الأسنان والعمور، وقد يقطر أيضا في الأنبوب الدهن المغلي.

ويستخدم ابن سينا بعد ذلك مادة الكافور مادة حاشية ويصفها بقوله:" وقد جرب الكافور في الحشو فكان نافعاً ويمنع زيادة التأكل ويسكن الألم". ولا يفوته أن يوصى عند استخدام المادة الحاشية فيقول:" يجب أن يرفق ولا يحشى عنف وشدة فيزيد في الوجع".

وفي مجال تجريف النخر والأجزاء المتموتة من السن، استخدم الأطباء العرب القدامي، الأدوات القاطعة اليدوية مثل:

المثقاب: لفتح حجرة اللب وتخفيف الضغط عنها.

المبرد: لإزالة الأجزاء النخرة الظاهرة من السن وتنعيم جدران الحفرة وصقلها.

المجرفة: لتجريف العاج المتلين داخل حفرة النخر.

المسلة: لوضع المواد المهدئة والكاوية داخل السن المؤرف.

الإزميل: لإزالة الأجزاء المينائية المتخربة وتسوية جدران الحفرة.

ونلاحظ أن بعض هذه الأدوات مازال أطباء الأسنان يستخدمونها حتى وقتنا الحاضر في مجال المداواة.

وبعد فقد كان للأطباء العرب القدامى أثر كبير في ترسيخ المفاهيم الأساسية لمداواة الأسنان وتثبيتها عبر العصور بما قدموه من إسهامات جُلى في هذا المجال مما يجعلنا نقدر محاولاتهم الدؤوب في تقدم فن طب الأسنان.

ثالثا : مهنة التمريض :

تذكر بعض المصادر أسماء عدد من النساء مارسن التمريض بينما تعدهن مصادر أخرى ممارسات للطب .ولابد من القول بأنه يصعب حقا التفريق بشكل جدى في تلك الفترة الزمنية بين الممرضة والطبيبة ،إذ إن أعمال الممرضة مرتبطة بشكل مباشر بأعمال الطبيبة في تدبير المريض ومعالجته .

كما اصطلح العرب اسم (الآسيات) على النساء اللائي كن يعملن في تضميد الجراح وجبر العظام والوقاية من النزف وغير ذلك من أعمال الإسعاف .وجل من جاء ذكرهن من الآسيات أدركن الإسلام. وسوف نذكرهن عند التحدث عن التمريض في صدر الإسلام .

موقف الإسلام من اشتغال المرأة في التمريض

لقد سمح الإسلام للمرأة أن تشترك في المعارك لتداوى الجرحى وتسقي العطشى وتطبخ الطعام، كما أجاز الشرع التمريض والإسعاف الصحي المسلم كذلك" فقد نص الإمام أحمد على أنه يجوز للمرأة أن تخدم الرجل وتشاهد منه عورة في حال المرض .وقال مثل هذا القول الإمام المحدث الحافظ الذهبي " [٤٣] .

وفي مقال له عن " الممرضة في التراث العربي الإسلامي " تناول الدكتور محمود الحاج قاسم محمد–[مجلة آفاق الثقافة والتراث ع(١٤)١٤١٧هـ= ١٩٩٦م] سير عدد ممن اشتهرن بمهنة التمريض من النساء المسلمات فيقول :

وقد عرف عموما عن نساء الأنصار والمهاجرين حرصهن على حضور المعارك منذ أيام الرسول ﷺ مع المهاجرين في ميادين القتال لتأدية الخدمات الطبية لهم من إسعاف وتمريض وعلاج للجرحى " حتى نساء النبي ﷺ اشتركن في مداواة الجرحة وسقي العطشى من المجاهدين ؛ فقد أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: رأيت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم لمشمرتان أرى قدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان". وأخرج مسلم أن نجدة الخارجي كتب إلى ابن عباس رضي الله عنهما يسأله عن غزو النساء مع النبي ﷺ فكتب إليه أنه كان يغزو بهن فيداوين الجرحى ويحدين (أي يعطين) من الغنيمة. وأما بسهم فلم يضرب لهن)[٤٤]

وفي سماح الرسول ﷺ لرفيدة في تضميد جراح سعد بن معاذ وهو غير محرم لها دليل آجر على جواز تمريض المرأة للرجل المريض.

ومن الجدير بالذكر أن كلمة (تمريض) وردت أول مرة في قول منسوب إلى السيدة عائشة رضي الله عنها ، قالت: لما نقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه استأذن أزواجه في أن يمرض في بيتي فأذن له) [٤٥] .

وإضافة لهذه الشواهد التي تبين إجازة الشرع التمريض سوف نذكر عند التحدث عن الممرضات في صدر الإسلام شواهد أخرى تأكد ذلك.

الممرضات في صدر الإسلام :

قبل أن نذكر أسماء المسلمات اللاتي عملن في التمريض لابد من الإشارة إلى أن بعض نساء بيت النبوة كن يقمن بالتمريض التطبيب . على سبيل المثال ما جاء

في كتاب السيرة النبوية والآثار المحمدية لدحلان" أن نساء المدينة خرجن يوم أحد ومعهن فاطمة رضي الله عنها لاستقبال المسلمين بعد الغزوة، فلما لقيت فاطمة رسول الله ﷺ اعتنقته، وجعلت تغسل جراحاته، وعلي رضي الله عنه يسكب الماء فيتزايد الدم، فلما رأت ذلك وأخذت شيء من حصير فأحرقته بالنار حتى صار رمادا، فأخذ ذلك الرماد وكمدته به حتى لصق بالجرح، فاستمسك بالدم" (٤٦) .

ويقول الذهبي في كتابه تاريخ الإسلام :"قال عروة : ما رأيت أعلم بالطب من عائشة رضي الله عنها، فقلت يا خالة من أين تعلمت الطب ، قالت : كنت أسمع الناس ينعت بعضهم بعضا فأحفظه" (٤٧)

وأخرج الحاكم " عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قلت لعائشة رضي الله عنها : قد أخذت السنن عن رسول الله ﷺ والشعر والعربية عن العرب ، فعمن أخذت الطب؟ قالت: إن رسول الله ﷺ كان رجلا مسقاما وكان أطباء العرب يأتونه فأتعلم منهم". وصححه الذهبي (ج٤ ص١٩٧).

وقد ذكرنا أنه ﷺ قبل وفاته قامت بتمريضه عائشة ، ومن جملة ما قالته رضي الله عنها:" ثم غمر (أي أصابته شدة المرض) رسول الله ﷺ ، واشتد به وجعه، فقال: هريقوا على سبع قرب من أبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعهد إليهم ، قالت فأقعد، في مخضب (اناء يغتسل به) لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء ختى طفق يقول حسبكم حسبكم" (٤٨) .

وكانت السيدة أسماء بنت أبي بكر تعالج المرأة.

المحمومة بالماء. وهو أسلوب في التمريض متبع حتى اليوم في معالجة المصاب بالحمى .

أما بقية النجيبات اللاتي جاء ذكرهن من المسلمات ممن قمن بالمؤاساة وأعمال التمريض فهن:

١- رفيدة (أو كعيبة) بنت سعد الأسلمية :

آسية وطبيبة تميزت بالجراحة، ولدت في يثرب، من فضليات عصرها، وكانت سباقة إلى الإسلام وكان بين من استقبلوا الرسول ﷺ حين هجرته إليها. اشتركت مع جماعة من نساء المسلمين في غزوة بدر متنقلة بين صفوف المجاهدين تشجع وتسعف المصاب، وتضمد الجريح وبعد الغزوة استمرت في وقت السلم محتسبة بنفسها على معالجة من به حاجة للعلاج. شاركت في غزوة أحد الخندق وخيبر " قال ابن إسحاق في السيرة كان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضبعة(علة) من المسلمين وقد كان رسول الله ﷺ قال لقوم حين أصيب رجل بسهم في غزوة الخندق " اجعلوا في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب".

يفهم من ذلك أن النبي ﷺ كان أول من أمر بالمستشفى الحربي المتنقل" [٤٩] وأن خيمة رفيدة هذه هي" أول مستشفى متنقل ، أو على أقل تقدير فإنها أول محطة تضميد متقدمة من ساحة المعركة" [٥٠] وأنها ونسيبة(في صدر الإسلام ٦٢٤هـ) أول ممرضتين في التاريخ تبعتهما فلورانس نايتنغيل في حرب القرم عام ١٨٥٤م وكانت كرست حياتها للتمريض[٥١].

ويروي أن رفيدة دربت بعض صاحباتها على مداواة المرأة وخدمة الجرحى فكانت بذلك أول معلمة تمريض في تاريخ المسلمين" [٥٢] وفي عام ١٩٧٨م وتقدير لكفاحها واحتراما لفنها ورسالتها الإنسانية التي قامت بها من أعماق قلبها بعد إيمانها

بالله ، قرر مؤتمر وزراء الصحة العرب منح الأولويات من خريجات معاهد التمريض في دول الشرق الأوسط جائزة رفيدة، بدأت الفكرة بالكويت من وزير الصحة الكويتي الدكتور عبد الرحمن العوضي. (٥٣)

٢- نسيبة بنت كعب المازنية :

وهي عمارة بنت كعب بن عمرو من بني مازن ابن النجار امرأة جليلة أسلمت ، واشتركت مع رسول الله ﷺ في أغلب المعارك. خرجت يوم أحد ومعها زوجها وولدها وهي تحمل الفماء والضماد. وظلت تقاتل وتداوي الجرحى حتى جرح ابنها ، فأقبلت عليه وربطت جرحه. ثم قالت له:" قم يا بني وناجز القوم" كما وأنها هي نفسها حاربت في هذه المعركة مدافعة عن الرسول ﷺ (٥٤) وقال فيها:" ما التفت يمينا وشمالا إلا وأنا أراها تقاتل دوني". " ومن يطبق ما تطيقينه يا نسيبة".

وأصيبت نسيبة في هذا اليوم بثلاثة عشر جرحا ضمدت وشفيت، واشتركت في حرب مسيلمة الكذاب في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث واست الجرحى وضمدت جراحهم، ثم جالدت حتى بتر ذراعها، وعادت إلى يثرب ساعد واحد متحملة – وهي قد ناهزت الستين من العمر- الجراح والجروح والآم بتر الساعد ومعالجة موضعه بالحرق بالدهن المغلي.

٣- الربيع بنت معوذ الأنصارية

إحدى السابقات من الأنصار. أخرج البخاري والنسائي وأبو مسلم الكنجي من طريق بشر بن المفضل عن خالد بن ذكوان عن الربيع بنت المعوذ قالت:" كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ونسقي القوم ونخدمهم ، ونرد القتلى والجرحى الحديث" (٥٥) توفيت في أيام معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٥هـ.

٤- أمية بنت قيس الغفارية :

جاء ذكرها في بعض المصادر أممية وفي بعضها أم عطية أسلمت وهي فتاة في الرابعة عشرة من العمر، وتزعمت الآسيات عند التوجه إلى خيبر ولما تبلغ السابعة عشرة . قالت أم عطية: " جئت رسول الله ﷺ في نسوة من غفار ، فقلنا: إنا نريد يا رسول الله أن نخرج معك إلى خيبر فندواي الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا؛ فقال رسول الله ﷺ على بركة الله. قالت: فخرجنا معه وكنت جارية حديثة سني ، فأردفي رسول الله ﷺ رحله. فلما فتح الله لنا وأخذ القلادة التي ترينها في عنقي فأعطانيها وعلقها بيده في عنقي، فوالله لا تفارقني أبدأ فكانت في عنقها حتى ماتت وأوصت أن تدفن معها".

إن هذ١ه القلادة أشبه ما تكون بالأوسمة الحربية التي تمنح للمتميزيين في عصرنا الحاضر.

٥- أم سنان الأسلمية :

مجاهدة جليلة جاءت النبي ﷺ متطوعة لما أراد الخروج إلى خيبر ، فقالت له: يا رسول الله أخرج معك من وجهك هذا أفرز السقاء وأداوي المرضى والجرحى . فقال لها رسول الله ﷺ أخرجي على بركة الله تعالي، فإن لك صواحب قد كلمنني وأذنت لهن من قومك ومن غيرهم.

٦- أم رمثة بنت عمر هاشم بن عبد المطلب :

أسلمت وبايعت النبي ﷺ وشهدت معه فتح خيبر وشاركت مع النساء المسلمين في إسعاف الجرحى وتضميدهم [٥٦]

٧- بحيتة بنت الحارث :

أسلمت وبايعت الرسول ﷺ وشاركت في غزوة خيبر.

٨- أم سليط

من المسلمات الأوليات من الأنصار من فضليات نساء عصرها، بايعت النبي ﷺ وحضرت معه يوم أحد.

٩- أم الحارث الأنصارية :

من ربات الشجاعة والفروسية ، شهدت مع رسول الله ﷺ حنينا ولم تنهزم يومئذ فيمن انهزم، وإنما ثبتت وقاتلت وقاتلت إلى أن تجمع شمل المسلمين [٥٧] .

١٠- حمنة بنت جحش :

أسلمت في مكة بداية نشر الدعوة، وشهدت أحدا، فكانت تسقي العطشى وتداوي الجرحى، وشاركت كذلك في غزوة خيبر، وأبلت بلاء حسنا في الإسعاف وسقي الجرحى[٥٨] .

١١—أم زياد الأشجعية :

غزت مع النبي ﷺ يوم خيبر ، وهي سادسة ست نسوة، قد سبقت التطوع للخروج مع المسلمين لعلاج الجرحى وسقي العطشى. فبلغ النبي ﷺ خبرهن ، فبعث إليهن وقال: بإذن من خرجتن؟ فقلن له : خرجنا ومعنا دواء نداوي الجرحى ونناول السهام ونسقي السويق ونغزل الشعر ونعين في سبيل الله . فقال لهن: لأقمن. أي أقمن مع الجيش. فلما فتح الله عليه خيبر قسم لهن كما قسم للرجال [٥٩] .

١٢- سلمى مولاة محمد ﷺ :

شهدت خيبر مع النبي ﷺ وكانت قابلة وممرضة كانت تقبل خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ومارية أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ وفاطمة بنت النبي ﷺ ومرضت السيدة فاطمة في مرضها الذي توفيت فيه [٦٠] .

١٣- أم سليم بنت ملحان بن خالد :

اشتهرت بكنيتها واختلف في اسمها، فقيل إن اسمها سهلة ، ورميلة، ومليكة وقيل غير ذلك . وهي مجاهدة جليلة، أسلمت مع السابقين للإسلام، وشهدت يوم أحد وسقت فيه العطشى، وداوت الجرحى، ثم شهدت يوم حنين، وأبلت فيه بلاء حسنا[٦١] .

١٤ – أم أيمن :

بركة بنت ثعلبة، أم أسامة بن زيد ، وحاضنة الرسول ﷺ ، عاش تحت حنانها ورعايتها في حياة والدته ومن بعد وفاتها . وكان يناديها ﷺ يا أمة. إذ كانت له بمثابة وهي التي كانت تدير شؤونه وتدبر أموره. شهدت أحد وخيبر وحنينا، وكانت رضي الله عنها تخرج معه في أكثر غزواته ، فتقوم على سقاية الماء للعطاش من المجاهدين ومداواة جراحهم والاعتناء بهم [٦٢] .

١٥– صفية بنت عمر بن الخطاب :

من فضليات نساء عصرها ، شهدت غزوة خيبر مع رسول اللهﷺ ، وشاركت في تضميد الجرحى وإسعافهم وسقي الماء للعطشى وإعداد الطعام للمجاهدين [٦٣] .

١٦– أم الضحاك بنت مسعود الأنصارية :

من السابقات للإسلام، شاركت في غزوات الرسول ﷺ .

١٧– أم منيع بنت عمرو بن عدي بن سنان :

من خيرات نساء عصرها ، أسلمت بايعت الرسول ﷺ وشهدت معه خيبر [٦٤]

١٨– معاذة الغفارية :

من فضليات نساء عصرها، كانت أنيسا برسول الله ﷺ تخرج معه في الأسفار وتقوم على المرضى وتداوي الجرحى [٦٥] .

١٩– ليلى الغفارية :

مجاهدة غازية خرجت مع النبي ﷺ في مغذيه ، وكانت تدوي الجرحى وتقوم على المرضى، ولما خرج علي رضي الله عنه إلى البصرة خرجت معه [٦٦] .

٢٠- أم ورقة بن عبد الله بن الحارث (الشهيدة) :

من السابقات في الإسلام وحين أرد رسول الله ﷺ الذهاب إلى بدر قالت له: أتأذن لي فأخرج معك أداوي جرحاكم وأمرض مرضاكم، لعل الله يهدي لي الشهادة. قال: إن الله مهد لك شهادة. وكان يسميها الشهيدة [٦٧] .

٢١- الشفاء بنت عبد الله :

أشتغلت في الطب. ومما اشتهرت به معالجة النملة (نوع من الأكزيما). ولعلها كانت تقوم بأعمال التمريض أيام السلم . توفيت في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٠هـ =٦٤٠م [٦٨] .

٢٢- سودة بنت مسرح :

إحدى قوابل العرب، كانت تقبل فاطمة بنت النبي ﷺ وروى عنها عروة بن فيروز [٦٩] .

مرضات وآسيات في الفتوح الإسلامية

خلدت كتب التاريخ ذكر نساء مسلمات أخريات كن يخرجن للقتال مع أزواجهن وأخزانهن وآبائهن ليقمن بنصب الخيام وتحضير الطعام وسقي الماء وتضميد الجرحى، ومعالجة المصابين والمرضى من المسلمين ونقل الشهداء ودفنهم وعندما كان يشتد وطيس المعركة كن يشاركن في القتال الفعلي. نذكر من بينهن:

١- أميمة بنت أبي بشر بن زيد :

مجاهدة قاتلت مع المسلمين مرارا ، شهدت اليرموك مع بعلها عبد الله بن فرط الأزدي ، فكانت تحرض على القتال، وتسعف الجرحى . وما لبثت أن اشتركت في المعركة وقتلت يومئذ تسعة من علوج الروم بعمود خبائها [٧٠] .

٢- أسماء بنت يزيد :

من المسلمات النجيبات اللاتي اشتركن في إسعاف الجرحى ومقاتلة لاروم في معركة اليرموك.

٣- أم حبيب بنت العاص القرشية :

مجاهدة جليلة أدركت عصر النبي ﷺ ، وشهدت معركة اليرموك ولما اقتضت المعركة نزلت النساء من التل بعمد الخيام يضربن وجوه الرجال وأم حبيب تقودهن وشجعن الرجال على الصمود حتى انتصر المسلمون.

٤- أم حكيم بنت الحارث المخزومية :

مجاهدة شجاعة أبلت بلاء حسنا في معركة اليرموك ، فقاتلت فيها أشد القتال في وقعة مرج الصفر حيث خرجت بعمود الفسطاط، وقتلت سبعة من علوج الروم[٧١] .

٥- أم موسى بنت نصير :

شهدت مع زوجها اليرموك آسية ومقاتلة.

٦-خولة بنت الأزور الكندي :

اشتركت في معارك الشام مع نساء المسلمين لتقوم على شئون المقاتلين ومعالجة الجرحى، إلا أنها لما سمعت بجرح أخيها ضرار بن الأزور وأسره . تركت الضماد جامدا واستلت سيفها واندفعت نحو صفوف الروم مقتلة، فدهشت الجميع بشجاعتها وببسالتها.

obeikandl.com

٧- أم كثير زوجة همام بن الحارث :

امرأة فاضلة كانت بين نساء المسلمين اللاتي يعنين بالجرحى ويمرضنهم واللاتي اشتركن في معركة القادسية. قالت: " شهدن القادسية مع أزجنا ، فلما آتانا أن قد فرغ من الناس نعني توقف النزال شددن علينا ثيابنا، وأخذن الهراوي ثم آتين القتلى فما كان من المسلمين سقيناه ورفقنا به وما كان من المشركين أجهزن عليه وتبعنا الصبيان نوليهم ونصرفهم به" (٧٢) .

لو قارنا هذا النص بتطبيقاتنا الطبية العسكرية الحديثة" لأمكن اعتبار الصبيان والنساء وبعض الرجال هم حملة النقالات الذين يفرزون الشهداء والجرحى ومن به رمق وهم ينجزون أعمالهم بعد أن تضع الحرب أوزارها وينسحب المقاتلون من ساحة المعركة"(٧٣) .

الممرضات في الأحقاب الإسلامية الأخرى

بقية النسوة في خلافة الراشدين ودولة بني أمية مستمرات على أعمال تمرض المرضي وتمضيد الجرحى وحمل ألأدوية والعناية بصحة المجاهدين كما يفعلون اليوم.

ومن شهيرات النساء في الطب والجراحة وطب العيون في أواخر عصر الراشدين وأوائل العصر الأموي :

١- خرقاء العامرية

جاء في كتاب الأغاني للأصفهاني (١٢: ١٠٩) " كانت تكحل العيون فجائها ذو الرمة (-١٢٧هـ) فداوت عينه من رمد وقال فيها شعرا".

٢- صحر بنت لقمان

من حكيمات العرب (٧٤) .

٣- زينب طبيبة بني أود

كانت عارفة بالطب خبيرة بالعلاج واشتهرت بمداواة أمراض العين .

* * *

وحينما اتسعت رقعة الأمصار المفتوحة وزاد عدد المسلمين بطلت عادة خروج المرأة ، واستغني الجيش العربي المسلم عن مشاركتها في الحروب وقيامها بأعمال التمريض . كما وان تطور نمط الحياة في المدن الإسلامية فرض عليها التزام بيتها، وأسند مهمة إسعاف الجرحى إلى جماعات متخصصة من الرجال.

ومع الرقي الحضاري وانتشار العلوم وتقدم الطب وانتشرت المستشفيات العامة والخاصة والمتخصصة في الدولة العباسية. وفيما بعد جعلت أقسام من تلك المستشفيات لمعالجة النساء هذه الأقسام النسائية تحتاج حتما إلى نساء يشرفن على إدارتها وإلى ممرضات يقمن بأعمال التمريض ومساعدة الأطباء في فحص النساء ومعالجتهن.

هناك دلائل تؤكد ذلك ،منها ما يدل على استعانة الأطباء بالممرضات في فحص النساء وعلاجهن، فقد جاءت في كتابات الرازي وغيره أنهم كانوا يسألون القابلة أن تفحص المرأة المريضة بالأمراض النسائية بعد أن يرشدوها إلى طريقة الفحص والهدف منه. ومع مرور الأيام صار لدى هؤلاء القابلات المتمرسات في أعمال التوليد دراية في مهنة التمريض وخبرة لمعرفة طريقة الفحص والتفريق بالمجس المهبلي بين مختلف الأعضاء الأنثوية الداخلية ومعرفة ما هو غير طبيعي فيها.

أما عن مساعدة الممرضات في إجراء العمليات الجراحية على النساء فذكر ما جاء في كتاب التصريف عن عملية استخراج حصاة المثانة عند المرأة – يقول

الزهراوي:" ينبغي أن تتخذ امرأة طبيبة محسنة وقليل ما يوجد ذلك ، فإن عدمتها فاطلب طبيبا عفيفا رقيقا ، ثم تحضر امرأة قابلة محسنة في أمر النساء أو امرأة تشير في هذه الصناعة بعض الإشارة فتحضرها وتأمرها أن تصنع ما تأمرها ..." [٧٥] ثم يستمر بذكر أسلو بفحص المريضة من قبل المساعدة وكيفية توجيهها بكيفية طريقة إجراء العملية .

وفي العهود المتأخرة إشارات واضحة لعمل الممرضة ؛ يذكر الدكتور أحمد عيسى مثلا من جملة شروط الواقف للمستشفى المنصوري الكبير في القاهرة ما يلي: "ويصرف الناظر من ريع هذا الواقف للقومة والفراشين ، الرجال والنساء بهذا البيمارستان ما يرى صرفه إلى كل بحسب عمله على أن كل منهم يقوم بخدمة المرضى المختلين من الرجال والنساء بهذا البيمارستان وغسل ثيابهم وتنظيف أماكنهم وإصلاح شئونهم والقيام مصالحهم [٧٦] .

ويول الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب " وفي الدمثة كان نساء زنجيات من السودان يخدمن المرض ى ويقمن بشئونهن الضرورية في الغرف وخارجها" [٧٧] .

والمقصود بالدمثة المستشفى حيث غلبت هذه التسمية في القيروان ، وذلك لأن "الدمثة هو اسم الموضع الذي شيد فيه أول مستشفى فيها" والغريب أن كل مستشفى بني في القطر التونسي فيما بعد سمي الدمثة أيضا.

وما جاء في كتاب وقف مرجان يعد أوسع وأدق ما عرفناه عن التمريض (سواء في صفات الممرضة في المستشفيات الإسلامية أم واجباتها) وقد كتب الأصل سنة ٧٥٨هـ = ١٣٥٧م.

لقد اشترط أمين الدين مرجان (الذي حكم بغداد من قبل السلطان الجلائـــري) أن يكون في دار الشفاء المرجانية أربعة رجال وامرأتـــان) (وهمـــا الممرضـــتان) واشترط في كل من المرآتين أن تكون [٧٨] :

١-عفيفة

٢-مسلمة

٣-مستورة

٤-تقية

٥-أمينة

٦-شفيقة

٧-جلدة

٨-متوسطة

٩-ذكية

١٠-سميعة

١١-خبيرة بالفرش والتطهير والغسل والتبخير

١٢-عارفة بمصالح النساء وما يصلح لهن من الغذاء والدواء.

وأما واجباتها فهي:

١-خدمات المريضات والمحرورات الأبثات في هذه الدار في الموضع المعد لهن منها.

٢- تنظيفهن وتطهير ثيابهن ومساكنهن وتبخيرها.

٣- إيقاد مصابيحهن.

obeikandl.com

٤-إيصال ما يقرره الطبيب لكل واحدة منهن وتناوله من الساقي من غير أن يدخل إليهن وتوفيره عليهن مشروبا كان أو مأكولا.

٥- وتقومان بعنايتهن.

٧- وتعريف الساعور (مراقب المضى= رئيس الأطباء) بحال كل واحدة منهن وفهم ما يقرره في شأنهن.

٨- وتعتمد كل واحدة منهما ما يعتمده الفراشون(من الخدمة) وما تعجز عنه فيفعله الفراشون مع عدم الخلوة بهن أو المشاهدة لواحدة (منهم).

٩- وأن تلازم كل واحدة منهما الموضع المعين لها من هذه الدار بالليل.

والأجرة هي ثلاثون دينارا لكل واحد في الشهر. أما الإستعانة بالنساء في بعض الأعمال التي هي من صميم عمل الممرضة كإرضاع الطفل أو حاضنته فكان أمرا شائعا في المجتمع العربي الإسلامي ولا حاجة إلى ذكر الشواهد التي تؤكد ذلك.

وأخيرا وكما قلنا لما كان من الصعب إيجاد حد فاصل بين أعمال التطبيب والتمريض والقبالة في تلك الحقبة من الزمن حتى عصرنا الحاضر فإن التمريض جزء مهم من الطب في تدبير المريض وعلاجه من مرضه . لذلك نجد أن عددا من النساء اشتهرن في بعض المصادر طبيبات ، وفي الوقت نفسه يمكن اعتبارهن ممرضات، وذلك لقيامهن بهذه المهنة. نذكر منهن:

١- أم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطنجالي

من أهل برشلونة . كانت امرأة واسعة الإطلاع كثيرة المعارف، ولكنها كانت في الطب أبرز وأشهر [٧٩] .

٢- بنت دهن اللوز الدمشقية.

من شيخات دمشق وعالماتها ، توفيت بها سنة٦١٤هـ.

٣-أخت الحفيد ابن زهر وابنتها.

كانتا بارعتين رصناعة الطب والمداواة ، وكان لهما خبرة جيدة فيما يتعلق بمداواة النساء، وكانتا تدخلان على نساء المنصور، ولا يقبل لمداواة أهل المنصور سواهما [٨٠] ابنة شهاب الدين بن الصائغ

٤-رئيس البيمارستان المنصوري بالقاهرة

تولت رأسته مكان والدها في مشيخة بالطب بعد وفاته [٨١] وهذا دون شك أقصى ما يمكن أن يصل إليه أي مشتغل في الطب لزمانها [٨٢]

٥- عائشة بنت محمد بن الجيار

كان أبوها محتسبا بسبته، قرأت الطب على صهرها محمد الشريشي ونبغت فيه، كانت امرأة عاقلة نزيهة النفس، عارفة بالطب والعقاقير [٨٣] .

٥- سارة الحلبية

شاعرة أديبة طبية ماهرة أصلها من الشام وكانت تفد على الملوك والأمراء منهم أمير المؤمنين المستنصر بالله الحفصي صاحب أفريقيا، وأبو عبد الله محمد بن نصر المدعو بابن الأحمر (تولى الملك سنة ٦٧١-٧٠١ هـ) والمير أبو يوسف بن عبد الحق المريني (تولى الملك سنة (٦٥٦-٦٨٥هـ) بحضرة مراكش، وتوفيت في أيامه في الدار البيضاء" [٨٤]

وهناك إشارة إلى اتخاذ بعض المتطببات محلات خاصة (عيادات) للتطبيب في بغداد؛ فقد ذكر الطبري في حوادث سنة ٢٩٠هـ قال:" فذكر عن متطبب بباب المحول يدعى أبا الحسن أنه قال : جاءتني امرأة بعد ما دخل القرمطي صاحب الشامة وأصحابه بغداد، فقالت لي : إني أريد أن تعالج شيئا في كتفي، فقلت وما هو؟ قالت جرح ، قلت : أنا كحال، وههنا امرأة تعالج النساء وتعالج الجراحات فانتظري مجيئها". إلى أن يقول:" قال المتطبب: فقمت إلى المتطببة لما جاءت

وأوصيتها بها، فعالجت جرحها، وأعطتها مرهما ، فسألت المتطببة عنها بعد انصرافها، فقالت: قد وضعت يدي على الجرح ، وقلت انفخي فنفخت، فخرجت الريح من الجرح من تحت يدي وما أرها تبرأ منه ن ومضت فلم تعد إليها"[٨٥]

ويذكر ابن حزم الظاهري عند كلامه عن صناعات النساء في الأندلس ، فيقول: ومنهن المعلمة والطبيبة..." [٨٦]

وقبل أن ننهي البحث لابد من الإشارة إلى شيوع الثقافة الصحية بين أوساط الجواري المثقفات اللاتي كن يقمن بتنفيذ وصايا الأطباء في تمريض ومعالجة من يخدمونهن من الخلفاء والأمراء وذويهم على سبيل المثال:

١- الجارية تودد.

امتحنها الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ= ٧٨٦-٨٠٩م) ولما تأكد من إطلاعها في علوم مختلفة ومنها الطب دفع فيها ثمنا باهظا(١٠٠٠٠) دينار [٨٧]

٢- جارية أبي عبد الله الكتاني.

" عالمة فاضلة أديبة كبيرة... كانت عارفة بالطب وعلم الطبائع ومعرفة التشريح وغير ذلك، وتوفيت في القرن الخامس للجرة" [٨٨]

openkanar.com